اللغة والمجتمع
المسألة اللغوية في البنيوية التكوينية
بيار بورديو نموذجا

د. الزواوي بغوره،
قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الكويت.

الملخص:

إذا كانت اللغة وسيلة للتواصل فإنها كذلك وسيلة للسلطة. فالكلمات تمارس دائما نوعا من السلطة. ولكن الكلمات لا تمارس سلطتها إلا على من لها صلة به. وبحسب بورديوفان اللغة هي خلاصة للمقدرة والسوق اللغوية. وتخضع هذه العلاقة لأصناف من الاحتكار والسلطة ذات الطبيعة الرمزية. ولدراسة هذا المفهوم اللغوي فإننا سنقوم بتحليل العناصر الآتية:

1. بيار بورديو في السياق البنيوي.
2. مفهوم اللغة.
3. بين سلطة الخطاب وخطاب السلطة.
4. منزلة اللغة في نظرية الممارسة.

Résumé :

Si le langage est un moyen de communication, il est aussi un principe de pouvoir. En fait les mots exercent un pouvoir : ils font croire, ils font agir. Mais le pouvoir des mots ne s'exerce que sur ceux qui ont été disposés à les entendre et à les écouter, bref à les croire. Selon Pierre Bourdieu Le discours quel qu'il soit, est le produit de la rencontre entre un habitus linguistique, c'est-à-dire une compétence technique et sociale et un marché, c'est-à-dire le système des règles de formation des prix qui vont contribuer à orienter par avance la production linguistique. Or, tous ces rapports de communication sont aussi des rapports de pouvoir, et il y a toujours eu, sur le marché linguistique, des monopoles. Ce pouvoir est un pouvoir symbolique qui est en mesure de se faire reconnaître, et d'obtenir la reconnaissance. Pour analyse cette conception on a étudié les éléments suivants :

1. Pierre Bourdieu et le contexte structural.
2. Le concept du langage.
3. Entre le pouvoir du discours et le discours du pouvoir.
4. Le statut du langage dans la théorie de la pratique.

يميز الدارسون في البنيوية بين تيارين أساسين، تيار البنيوية الشكلية الذي نقرا أرضيته العلمية في لسانيات "دي سوسير" وفي ما قدمه "كلود ليفي ستروس" من أعمال انتربولوجية، وتيار البنيوية التكوينية الذي قام على جهود لسانيات "شومسكي"

والأعمال النفسية والعلمية والأدبية والاجتماعية لـ"جان بياجي" و"لوسيان غولدمان" و"بيار بورديو".

ففي سنة 1959، نظم مجموعة من الباحثين مؤتمرا علميا حول البنيوية، أكدوا فيه على ضرورة الجمع بين البنية والتكوين، ودعا غولدمان في هذا المؤتمر إلى ما أصبح يعرف بالبنيوية التكوينية التي ظهرت في نظره(كفكرة أساسية في أعمال هيغل وماركس)(Dosse.F.1992 :210). ولقد سبق لغولدمان أن طبق هذا الشكل من البنيوية على نصوص"باسكال"و"راسين" وذلك في كتابه المشهور (الإله الخفي) سنة1956.

كما دعم هذه الفكرة الفيلسوف وعالم النفس والتربية، السويسري"جان بياجي" الذي انتقد علم النفس الجشطلتي اوعلم النفس الصورة، مؤكدا على الطابع الترابطي بين البنية والتكوين، وذلك في أعماله العديدة حول علم النفس الطفل، مبينا أنه لا وجود (لبنيات فطرية وأن كل بنية تفترض التكوين) (Dosse.F.1992 :211).

وفي كتابه الذي خصه للبنيوية، اشترط أن تتوفر في البنية ثلاثة عناصر هي: الكلية والتحول والضبط الذاتي (بياجي. ج. 1971: 8) ، مقرونة بمفهوم " التكون Genèse " الذي هو(طريقة ابستيمولوجية تتطلب دراسة المعرفة في إطار تكوينها وبنيتها النفسية والواقعية) (Piaget. J. 1970 :16).

وعليه تكون البنية عند "بياجي" أداة إجرائية أومنهجية، تؤمن وحدة الذاتي والموضوعي. هذه البنية لا تعرف ولا تدرك إلا ضمن إطار التكون، لان (الابستيمولوجية التكوينية، تكمن في البحث عن الجذور المختلفة والمتنوعة للمعارف منذ أشكالها الأولى حتى مستواها العلمي الآني) (Piaget. J. 1972 :7).

والقاعدة الأساسية التي يقوم عليه التكون هو:(أن الدرس الوحيد، الذي تقدمه دراسة التكون هوأنه لا وجود لأية بداية مطلقة) (Piaget.J.1972 :7). لذا فان البنية والتكون، مفهومان مترابطان، إذ لا يمكن إدراك الشيء إلا في إطار بنيته وتكونه وتحوله. ولقد وقف عند هذه القضية كذلك غولدمان في كتابه " الماركسية والعلوم الإنسانية " حيث كرس فصلا كاملا لعلاقة البنية بالتكون. حيث قال في هذا السياق (البنيوية التكوينية ترى أن الفهم ـ الشرح ليس فقط عمليتان مقرونتان بل هما عملية واحدة، تظهر على مرحلتين من مراحل تقسيم الموضوع المدروس) (Goldman.L.1970:20). وهذا يعني أن مفهوم البنية يتحدد في الاتجاه البنيوي التكويني بـ:

1 . الكلية والتحول والتكون.

2 . تقوم البنية باعتبارها مجموعة، على نوع من الضبط الذاتي.

3 . لا يمكن إدراك البنية إلا ضمن تكونها وتطورها، وهوما يؤدي إلى القول أن البنية لا تتنافى والتغير، بعكس البنية في مفهوم ليفي ستروس التي تفرض الثبات.
4 . تقوم البنية في المفهوم التكويني، على جدلية الفهم والشرح والتزامن والتعاقب.

ان هذا الفهم للبنيوية في صيغتها التكوينية، سيتجدد عند بيار بورديو< Pierre Bourdieu 1930- 2002> ويأخذ أبعادا جديدة، فمن هوبيار بورديو؟ وما هي علاقته بالبنيوية التكوينية؟ وما هي مساهمته في اللغة؟

<u>بورديو في سياق البنيوية وما بعدها:</u>

يقول "بيار بورديو" في كتابه: أشياء قيلت <Choses dites>: (لقد أخذت على عاتقي أن اروي مسار حياتي بهذه الطريقة، بمعنى أن أقدم عناصر سوسيولوجية لتطور عملي. وإذا قمت بهذا، فلأنني اعتقد أن هذا الشكل الذاتي من التحليل يعتبر جزءا من شروط تطور ونموفكري، وإذا استطعت أن أقول ما قلته اليوم، فلأنني ومن دون شك، لم أتوقف يوما من استعمال السوسيولوجيا ضد محدوديتي وحدودي الاجتماعية، وبشكل خاص، تحويل المرح والعطف وأشكال النفور الثقافي - وهي أشكال مهمة في تقديري في الاختيارات الفكرية - إلى مقترحات واعية وتفسيرية) (Bourdieu.P.1987 :37). ليس سهلا الحديث عن سيرة فكرية تتمتع بهذه الأهمية والدور في التكوين الفكري والمعرفي للعالم، في سياق دراسة كهذه، ولذا فان كل ما نهدف إليه، هوالإشارة إلى بعض الخطوط العامة لهذا المسار، وخاصة ما يفيد موقفه من اللغة، لذا فإننا سنتلمس الخطوط العامة لسيرة فكرية بغرض فهم السياق العام لفكر العالم وموقفه من اللغة.

ولد بيار بورديوسنة 1930 في منطقة البيريني، درس في المدرسة العليا للأساتذة بباريس، وتحصل على شهادة التبريز في الفلسفة، ثم التحق بكلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1958، حيث أنجز أول أعماله الانتربولوجية، ومنها بوجه خاص:سوسيولوجيا الجزائر، 1961، والعمل والعمال في الجزائر، 1964. وتعبر هذه الأعمال الميدانية عن المرحلة الأولى للباحث، لتبدأ المرحلة الثانية بالاهتمام بالمجال التربوي والمنظومة التربوية ووضعية الطلبة حيث كتب مع بسيرو<Passero>: الورثة سنة 1964، والتقرير البيداغوجي والاعلام ،سنة 1965، وإعادة الإنتاج، سنة 1971 ، ولقد عرف هذا الكتاب نجاحا كبيرا، وجعل من بورديووجها من الوجوه البارزة في الثقافة الباريسية، ومن ثم تبدأ المرحلة الثالثة من حياته حيث اهتم بالثقافة بمعناها الواسع والعميق، فدرس الفن والأدب والسياسة والإعلام والبؤس الاجتماعي والهيمنة الذكورية، وهي مواضيع نقراها في كتبه العديدة.

انتخب بورديو في <الكوليج دي فرانس >، وهي أعلى مؤسسة علمية في فرنسا سنة 1981، أستاذا لكرسي السوسيولوجيا وقدم درسه الافتتاحي بعنوان: درس

حول الدرس ، كما ترأس تحرير مجلة: < Actes de la recherche en sciences sociales >، وذلك منذ سنة 1975. عرف بنظريته الاجتماعية النقدية للحداثة التي تعتبر عند مناصريه وأتباعه بمثابة <ثورة رمزية>.

وفي أخريات حياته وتحديدا منذ التسعينات من القرن العشرين، عرف بمواقفه النضالية ضد العولمة وباتخاذه مواقف سياسية علنية ونقدية ضد الإعلام والبؤس الاجتماعي، ودعا إلى ضرورة قيام المثقف النقدي، بوصفه ضرورة للديمقراطية الفعلية. توفي في يوم 23 جانفي 2002 عن عمر يناهز71 سنة. تاركا وراءه أعمالا علمية عديدة شملت ميادين مختلفة.

إن أهمية ما قدمه بورديوفي مجال علم الاجتماع، يكمن في الكيفية الجديدة لرؤية الأشياء، وذلك من خلال اهتمامه الكبير بالبنى الرمزية كالتربية والثقافة والفن والأدب والدين وكذلك السياسة والإعلام. وشكل العنف الرمزي واحدا من الموضوعات الهامة والمركزية في تفكيره. كما أن محاولته في تجاوز التقابلات التي طبعت العمل السوسيولوجي كالتقابل بين الشرح والتأويل، والبنية والتاريخ، والحرية والحتمية، والذاتية والموضوعية، دليل على أصالة تفكيره.

وما يميز بورديوكذلك هوتدخله في المجال الاجتماعي، مثله في ذلك مثل كبار المثقفين الفرنسيين المعروفين ك "اميل زولا" و"جان بول سارتر" و" ميشيل فوكو"..الخ، وهوبذلك يعبر عن تقليد ثقافي فرنسي عميق، حيث اهتم كثيرا بالحركات الاجتماعية وحاول إقامة ما سماه "يسار اليسار"، أي يسارا ناقدا للحزب الاشتراكي الفرنسي، كما دعا إلى ضرورة قيام المثقف النقدي، من اجل النضال ضد الليبرالية الجديدة، وبذلك يكون قد جمع بين مقتضيات العالم ومتطلبات المناضل، ووضع معارفه موضع التطبيق والفهم الاجتماعي للحركة الاجتماعية، فوجه نقدا لاذعا للإعلام والأجهزة الإعلامية واتهمها بالخضوع للمنطق التجاري، والى كونها أسندت مختلف القضايا إلى محاولين<essayistes> ثرثارين غير مؤهلين، ففي آخر مقابلة له، توجه بأسئلة إلى من سماهم السادة الجدد للعالم مؤكدا أن:(هذه السلطة الرمزية التي هي في غالبية المجتمعات منفصلة عن السلطة السياسية والاقتصادية، قد أصبحت اليوم تجمع في أيدي نفس الأشخاص الذين يمتلكون القدرة على مراقبة التجمعات الإعلامية الكبرى، بمعنى مجموع وسائل إنتاج وتوزيع السلع الثقافية) (Franczi.TH.2002 :17). كما ناهض العولمة الخاضعة لمنطق التجارة والربح، من دون أن يسقط في المحلية والخصوصية، لأنه دافع في الوقت نفسه عن توجه أكثر عالمية، يظهر ذلك في دعوته إلى إقامة حركة اجتماعية أوربية.

ومن الناحية الفكرية، يمكن القول ان بورديوانتقل من الفينومينولوجية ومشكلات المعنى، إلى الاهتمام بالمفهوم والنقد الابستمولوجي والمشكلات المعرفية

اوالابستمية لعلوم الإنسان، على غرار "باشلار" و"كونغليم" و"فوكو". فقد كان يقاسم فكرة جيل ما بعد الوجودية، في الحاجة إلى التخلي عن الفلسفة الذاتية والانخراط في البحث الابستمولوجي للعلوم الإنسانية. فمثلا، مر بقسم الفلسفة مثل بقية مشاهير جيله، وأحس بالخواء والفراغ في هذه الأقسام. يقول واصفا تلك المرحلة: (كنت ككل أولئك الذين تعبوا من الوجودية، أن اذهب إلى ابعد من مجرد قراءة المؤلفين الكلاسيكيين وان أحاول إعطاء معنى ما للفلسفة. وكان جورج كونغليم وغاستون باشلار بالنسبة لي بمثابة " الأنبياء القدوة" بالمعنى الذي يعطيه ماكس فيبر لهذه العبارة. ولما كانت الحركة الفينومينولوجية ـ الوجودية مسيطرة على الساحة، لم يكن أحد تقريبا يعرف بوجود هذين المفكرين على الرغم من أن دروسهما كانت تفتح خطا جديدا) (Bourdieu.P.1987 :14).

ولقد ساهمت أعمال كلود ليفي ستروس الانتربولوجية في إعادة الاعتبار والاحترام للعلوم الإنسانية،وبخاصة بعد صدور الانتربولوجية البنيوية عام 1958 والفكر المتوحش عام 1961، ودعوته إلى استلهام النموذج الالسني كما صاغه دي سوسير وجاكبسون وحلقة براغ عموما، ثم لحقتها جهود ميشيل فوكو في الاركيولوجيا وجاك دريدا في الغراماتولوجيا ورولان بارط في السيميولوجيا.

على ان بورديورغم الأهمية التي أعطاها لفلاسفة وعلماء جيله، إلا انه ترك مسافة ما تفصل بينه وبينهم، مسافة تنم عن عدم الرضا والتحفظ، فهويرى أن هذا الجيل الذي تلا الوجودية، (احدث قطيعة مع الفينومينولوجية السارترية والنزعة الإنسانية الهشة اوالمجردة والمثالية، ولكنه انضم نصف انضمام إلى المنهجية الابستمولوجية واعتنقها نصف اعتناق) (Bourdieu.P.1987 :20). لان عيب الفلاسفة في نظره، يكمن في الابتعاد عن الميدان والحياة العملية، واستغلال أعمال الباحثين الميدانيين، بعد أن اصبغوا عليها تعميماتهم النظرية.

ولعل النص الموالي، يبين حجم وعمق المشكلات التي طرحها هذا الفيلسوف العالم، يقول(سوف تتخيلون انكم في درس فلسفة لا في درس علم اجتماع. ولكن أرجوأن تعرفوا أن ما افعله ليس عملا نظريا بحتا، وإنما هوعمل نظري يأتي بعد انتهاء المعركة، أي بعد القيام بالبحوث الميدانية والتطبيقية...كان السؤال الأساسي الذي طرحناه هذا العام يخص العلاقة بين السلطة والمعرفة... وقد رأيت انه يجب تجاوز التضاد التقليدي المعروف بينهما... أريد أن أتجاوز ذلك لأبين أن هنالك سلطة للنظرية، أوسلطة نظرية... لقد قمت بهذا التمرين النظري كعالم اجتماع وباحث ميداني، وحاولت تحديد قوانين السلطة النظرية وآليات اشتغالها، وهذا ما ينساه الفلاسفة عموما، لأنهم يفكرون دائما بمصطلحات الجواهر الخالصة) (Bourdieu.P.1987 :32).

يطرح هذا النص الأسئلة الكبرى لكل علاقة ممكنة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، انه يطرح علاقة النظرية بالممارسة وكيفية تحققها، كما يطرح مسالة العلاقة بين العلم والسياسة ومكانة العلم بوصفه سلطة، ومساهمة العلوم الاجتماعية في تحليل هذه القضايا مقارنة بالفلسفة، وعلاقة المعرفة والسلطة كما طرحتها كتابات ميشيل فوكو.

وللخروج من الطريقة الفلسفية كما وصفها آنفا، أعلن بورديوانتماؤه إلى المنهجية المادية، ولكن ليس أية مادية وإنما المادية الناشطة وليس المادية السلبية، وبذلك يعيد تفكير أطروحة ماركس التي يعيب فيها على الماديين الذين تركوا الجانب النشط في المعرفة، للمثاليين، وهذا ما حاول القيام به في نظريته القائمة على" مادية الأشكال الرمزية".

كما انه من اجل أن تعرف الذات موضوعها بشكل صحيح، يجب أن تتجاوز مرحلة النظر إلى مرحلة العمل، وان تدخل في الممارسة الميدانية، من هنا جاءت ممارسته للبحث الميداني في أكثر من عشرين وسطا اجتماعيا مختلفا، باحثا في أسباب الظواهر وعللها وضرورتها الموضوعية والذاتية. يقول(إن العلم الذي يريد ان يفهم ويكتشف علة ما هوموجود من ظواهر يفترض حتما، بأنه لاشيء موجود بدون علة وجود. لكن عالم الاجتماع يضيف إلى هذه العبارة " اجتماعي" فتصبح بدون علة وجود اجتماعية. ولكن الناس يخلطون تحت اسم الحتمية بين شيئين مختلفين جدا: الأول:هوالضرورة الموضوعية الكامنة في الأشياء. والثاني الضرورة "المعاشة" الظاهرية والذاتية، أي عاطفة الشعور بالحتمية اوبالحرية. إن درجة الحتمية التي تتحكم في العالم الاجتماعي تعتمد على معرفتنا له، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فنحن نجد أن الدرجة التي يخضع بها العالم الاجتماعي للحتمية ليست مسالة رأي شخصي) (Bourdieu.P.1980/Q :44).

وفي هذا السياق، خص البنيوية الشكلية بالنقد المنهجي بشكل خاص، وبين محدودية الطريقة البنيوية، رغم إقراره بأهميتها وخاصة في مسالة اللغة وطريقة معالجتها للأساطير والرموز. يقول (ولكن على الرغم من ذلك جاء وقت أحسسنا فيه بالحاجة لإحداث القطيعة مع الانتربولوجيا البنيوية وليفي ستراوس بالذات. ذلك ان ليفي ستراوس قد حصر عمله فقط في تحليل الأنظمة الرمزية وخصوصا الأساطير، أي بالتصورات الفوقية. أما نحن فقد لزم علينا أن نذهب إلى ابعد من ذلك لكي نحلل العلاقات الاجتماعية بصفتها متماسكة وذات دلالة. بمعنى آخر لقد نقلت البنيوية من مستوى التصورات والأساطير والمخيال إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية (Bourdieu.P.1987 :19).

وفي الوقت الذي انتقد فيه بورديوالبنيوية كما صاغها ليفي ستروس، فانه ارتبط بالبنيوية التكوينية، التي عرفها بقوله(اقصد بالبنيوية التكوينية أن هنالك في العالم الاجتماعي بنيات موضوعية مستقلة عن وعي وإرادة الفاعلين، وهنالك تكوين اجتماعي لإشكال الإدراك والفكر والفعل وهوما اسميه بالتطبع <habitus> هذا من جهة، ومن جهة أخرى هنالك بنيات اجتماعية اوما اسميه الحقول الاجتماعية) (Bourdieu.P.1987 :147).

لقد شكلت البنيوية في صيغتها التكوينية عند بورديو، أفقا نظريا نقراه في قوله:(لقد كنت بنيويا سعيدا) (Bourdieu.P.1980/S :22). لأنه أدرك المساهمة الايجابية للبنيوية في العلوم الإنسانية وخاصة على مستوى المنهج، حيث مكنت العلوم الإنسانية من الانتقال من التفكير في الجواهر إلى التفكير في العلاقات.

ولقد حاول بورديوتأسيس بنيوية تكوينية(Bourdieu.P.1987 :24)، تقوم على تحليل البنيات الموضوعية من دون فصلها عن تكونها من خلال دراسة الأفراد والبنيات الذهنية. كما ركز على دور البنيات الرمزية التي لها سلطة خاصة في التكوين، فرغم خصوصيتها الفائقة إلا أنها تتحدد ضمن شروطها التاريخية والتكوينية.

وعرف بورديوبنظرية الحقول، التي يمكن تسميتها بتعدد العوالم القريبة من بوبر، لأنها تفكير في إمكانية تعدد أشكال المنطق المترابطة مع مختلف العوالم، بمعنى مختلف الحقول بوصفها أمكنة، يتشكل فيها المعنى المشترك. وفي نظره فان الحقيقة هي رهان صراعات في حقل من الحقول. ويعتبر الحقل العلمي لعبة حيث يجب التسلح بالعقل من اجل الربح، والقول بان هنالك شروطا اجتماعية لإنتاج الحقيقة، يعني القول أن هنالك سياسة للحقيقة(Bourdieu.P.1987 :24-44).

كتب بورديوفي سوسيولوجيا الحقول الأدبية، ودعا إلى ضرورة استبعاد فكرة المبدع من عدم، وهوما يسميه بالاختزالية الاجتماعية التي تؤكد على التبادلية الميكانيكية بين الوضع الاجتماعي والتعبير الجمالي، أوالاقتناع بان البنيات الصورية للعمل الفني كافية، ليؤكد على أن كل حقل اجتماعي يخضع لقوانينه الخاصة ويرتب فاعليه الاجتماعيين وفق نظام من القيم الخاص به، يسمح بفهم الخطوط العامة للحقول الثقافية.

ولقد حصل تقارب بينه وبين فوكووخاصة في مسالتين أساسيتين، تحليل المعرفة والسلطة، وتحليل اللغة أوالخطاب. ولأننا سنعالج المسالة الثانية بقليل من التفصيل لاحقا، فإننا نريد أن نشير باختصار إلى مسالة المعرفة - السلطة. يقول بورديو(إن موقفي، في خطوطه العريضة، قريب إلى حد كبير من موقف فوكو، ومع ذلك فهومختلف جدا؟ لقد حاولت ان احلل منطق وآلية ما كنت قد أسميته بالسلطة الرمزية <Le pouvoir symbolique>، أي السلطة التي تمارس نفسها على هيئة القدرة

التي تجعلنا نرى اونفهم اونعرف اونؤمن. وانطلاقا من ذلك يمكننا ان نتحدث عن السلطة النظرية اوسلطة النظرية إذا ما أعطينا لكلمة النظرية معناها الايتمولوجي الأصلي: أي برنامج الرؤية. كيف تمارس هذه السلطة دورها؟ كيف تمارس عملها؟ هنا ندخل في منطقة المعرفة/ الجهل، اوالمعرفة/ اللامعرفة. ذلك ان السلطة الرمزية هي سلطة تعسفية في الأصل، ولكن الناس يعترفون بشرعيتها لأنهم يجهلون انها تعسفية. وهذا هوالحال فيما يخص نظام الشهادات مثلا في مجتمعنا الحالي(...) في الواقع ان السلطة ليست شيئا متموضعا في مكان ما، وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة، ونجد ان كل بنية العالم الاجتماعي (=المجتمع) ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار من اجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة) (Bourdieu.P.2001 :207). ولقد بلور بورديومفهوما أساسيا في تحليل السلطة والسلطة الرمزية بالخصوص وهوالرأسمال الرمزي <Le capital symbolique> (Bourdieu.P.2001 :201-323).

<u>في مفهوم اللغة:</u>

يتميز الطرح اللغوي لبيار بورديو، بنقده للاتجاهات اللغوية الكبرى، وبتقديمه لمنظور اجتماعي للغة، يعكس تقاربا مع الفيلسوف اللغوي الانجليزي اوستين(Austin.J.1970) في نظرية الأفعال الكلامية، والطرح الاجتماعي للعالم لابوف (Labov.W.1976) وعلاقة اللغة والخطاب بالسلطة كما طرحها فوكو(Foucault.M.1971)، وبتقديم مفاهيم خاصة كالسوق اللغوية والرأسمال اللغوي وأخيرا تشابك هذا المنظور مع نظريته العامة في المجتمع والمعروفة باسم نظرية الممارسة< Théorie de la pratique>.

ويعتبر كتاب:اللغة والسلطة الرمزية <Langage et pouvoir symbolique > من أهم كتبه في اللغة، لانه يجمع كل البحوث التي نشرها حول اللغة منذ السبعينات من القرن العشرين. حيث ضم كتابه الأول حول اللغة، الذي صدر سنة 1982 بعنوان:ماذا يعني الكلام <Ce que parler veut dire>، بالإضافة إلى بحوث أخرى سبق وان نشرها في بعض كتبه، وبخاصة في كتابه: أسئلة علم الاجتماع< Questions de sociologie> 1980، الذي نشر فيه محاضرته التي حملت عنوان كتابه الأول عن اللغة، ونقصد بذلك " ماذا يعني الكلام؟ والسوق اللغوية، وكذلك تضمن كتابه:أشياء قيلت<<Chose dites، 1987، نصوصا منها" الفضاء الاجتماعي والسلطة الرمزية، واستعمالات كلمة <الشعب>، و< البعثة والصنمية السياسية>. وترجمت هذه البحوث الى الانجليزية بعنوان: اللغة والسلطة الرمزية< langage and symbolic power> ونشرت سنة 1991. والنص الانجليزي مع بحوث إضافية أخرى ومقدمة من احد أساتذة علم الاجتماع الانجليز، وتقديم جديد من قبل المؤلف أعيد نشره باللغة

الفرنسية سنة 2001، بالعنوان نفسه أي"اللغة والسلطة الرمزية ". وبذلك يعد بحق هذا الكتاب، خلاصة نظرية بورديوفي اللغة.

وكما سبق وان أشرنا إلى ذلك، فقد انتقد بورديوالطرح البنيوي على مستوى الانتربولوجية، هذا النقد في الحقيقة انسحب بشكل أساسي على طريقة التحليل البنيوي للغة والخطاب والنص، وهونقد طال بشكل أساسي لسانيات "دي سوسير" و"شومسكي " ومدرسة اكسفورد في تحليل أفعال الكلام اوالخطاب ومدرسة فرانكفورت وممثلها "هبرماس " في نظريته حول الفعل التواصلي، هذا ما نقرأه في الباب الأول والثاني من الكتاب. وهونقد يقربه من ميشيل فوكوواوستين، وفي الوقت نفسه يميزه عنهما وعن التيار الذي يسمى بما بعد البنيوية وبما بعد الحداثة.

يقول (ليس التحليل البنيوي إلا تنويعا محدثا على التحليل الداخلي القديم الذي يعالج النص كشيء مستقل لا علاقة له بالخارج(...)اعتقد، فيما يخصني، انه ينبغي الربط بين الفضاء الذي تتموضع فيه النصوص وبين الفضاء الذي يتموضع فيه المنتجون،أي الكتاب) (Bourdieu.P.2001 :61). لذا دعا إلى إحداث قطيعة مع القراءة الداخلية كما طبقها ليفي ستروس، والقراءة التي تربط بين الأثر وكاتبه بشكل مباشر، وبالتالي اعتبار النص مجرد انعكاس لحياة الكاتب الشخصية. وكذلك مع ما يسميه بالطريقة الاختزالية التي تجعل من الأثر انعكاسا مباشرا للمجتمع اوطبقة معينة مثل ما فعل ذلك غولدمان على سبيل المثال، ليدعوإلى اعتماد ما سماه بضرورة الكشف عن(بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة(وليس نصا معزولا بمفرده) وبين بنية المواقع التي يحتلها مؤلفوها داخل الحقل الأدبي) (Bourdieu.P.2001 :121). وهذا ما سماه فوكوفي نظرنا ـ بدراسة التشكيلة الخطابية لحقبة تاريخية معينة في كتابه: اركيولوجيا المعرفة، 1961.

يؤدي دراسة بنية النص والمواقع، إلى الحديث عن مختلف الوسائط التي تتحكم في عملية الإنتاج الثقافي. بمعنى الاعتراف بالفضاء الخصوصي الذي ينتج فيه الكتاب أعمالهم، دون عزلها عن الفضاء الكبير الذي هوالمجتمع. أي أن بورديويعترف بخصوصية الفضاء الثقافي وصراعاته ورهاناته، وانه ليس فقط انعكاسا آليا اومباشرا للمجتمع. فمصالح الفضاء الثقافي قد لا تكون هي نفسها مصالح الفضاء الاجتماعي أوعلى الأقل قد تكون مصالح مختلفة. لذا من الضروري تحليل الأثر الثقافي لذاته وبذاته قبل أن نربطه بشكل عام وغامض بالتشكيلات الاجتماعية الكبرى.

من هنا ناقش بورديو، مختلف أشكال السيطرة التي يمارسها النموذج اللساني كما صاغه "فرديناند دي سوسير" و" تشومسكي "على العلوم الاجتماعية، وهوفي هذه السياق قريب من حساسية فوكومن اللسانيات، مبينا أن الحل الوحيد يتمثل في إظهار انه حتى العمليات اللغوية ذات أساس اجتماعي. وفي نظره فان القبول بنموذج دي سوسير

في التحليل يعني معالجة العالم الاجتماعي بوصفه فضاء للتبادل الرمزي، وبالتالي اختزال الفعل الاجتماعي إلى فعل الحوار اوالتواصل، الذي يجب ان ينحل بدوره إلى اللغة والثقافة.

وللقطع مع هذه الفلسفة الاجتماعية ـ كما يقول ـ ما دام قد سبق له وان قدم نقدا ابستمولوجيا للبنيوية في كتابه: الحس العملي<Le sens pratique >، 1980، فانه يجب التأكيد على ان التبادل والتواصل يرتكز على علاقات قوى، داعيا في الوقت ذاته إلى تجاوز النظرة الاقتصادية الفجة لأشكال التبادل الرمزي. مقدما مفهومين أساسيين من مفاهيمه اللغوية وهما: بنية السوق اللغوية< structure du marché linguistique >، والرأسمال اللغوي <le capital linguistique>.

يرى بورديو، أن هنالك قانونا في علم اللغة الاجتماعي، يثبت أن اللغة المستعملة في موقف معين لا تعتمد فحسب كما تعتقد اللسانيات المحضة على قدرة المتكلم بالمعنى الذي يقول به شومسكي، بل أيضا على ما يسميه بالسوق اللغوية. فالخطاب الذي ينتج هومحصلة لقدرة المتكلم والسوق الذي يتداول فيها خطابه، كما يعتمد الخطاب في جانب منه، على شروط الاستقبال. ومن ثم فكل موقف لغوي يعمل بوصفه سوقا تجري فيها مبادلة أشياء ما. وتلك الأشياء هي كلمات بكل تأكيد، ولكن هذه الكلمات لم تصنع لكي تفهم فحسب، بل أيضا تكشف عن علاقة اقتصادية حيث يجري تقدير قيمة المتكلم: هل تكلم بطريقة حسنة ام سيئة؟ هل هومتألق ام لا؟ وهل يمكن الموافقة على كلامه ام لا؟

وفي نظره، فانه عندما تكون لغة ما في أزمة، وحينما يطرح السؤال عن معرفة أي لغة نتكلم، فذلك معناه أن المؤسسة هي التي في أزمة، من هنا يطرح السؤال عن السلطة التي تمنح التفويض، السلطة التي تقول كيف نتكلم وتعطي للكلام، السلطة والترخيص والموافقة.

يقول(لكي يعمل خطاب التدريس المعتاد، المنطوق به والملتقى باعتباره طبيعيا وتلقائيا ينبغي وجود صلة السلطة / الإيمان، أي علاقة بين مرسل قد خول سلطة وبين مستقبل مستعد لتلقي ما يقال، والإيمان بان ما يقال يستحق أن يقال..يفترض الاتصال في مواقف السلطة التربوية مرسلين شرعيين، ومستقبلين شرعيين، وموقفا شرعيا، ولغة شرعية) (Bourdieu.P.2001 :328). اللغة الشرعية هي لغة ذات أشكال صوتية وتراكيب شرعية، أي لغة تتفق مع المعايير المعتادة للسلامة النحوية، وهي لغة تقول ما تقوله، بطريقة سليمة. وبذلك تفسح الطريق للاعتقاد بان ما تقوله صحيح، وهذه إحدى الطرق الأساسية لتمرير الباطل في مكان الحق.

ويمكن التعبير عن السوق اللغوية بالمعادلة التالية: تطبع لغوي< habitus langagière > + سوق لغوية = تعبير لغوي أوخطاب. بحيث يتميز التطبع اللغوي، عن

القدرة اللغوية كما عرفها شومسكي، بوصفه نتاجا للشروط الاجتماعية، وانه ليس إنتاجا بسيطا للخطاب، بل هوإنتاج للخطاب المتكيف مع سوق اوموقف. وعليه فان السوق اللغوية هي، وكما يقول(هنالك سوق لغوية في كل مرة ينتج فيها شخص ما خطابا موجها نحومستقبلين قادرين على تقييمه وتقديره، وإعطائه ثمنا ولا تسمح المعرفة بالقدرة اللغوية وحدها بالتنبؤ بما سيكون عليه قيمة أداء لغوي في سوق ما. فالثمن الذي ستلقاه منتجات قدرة معينة في سوق معينة تعتمد على قوانين تكوين الثمن الخاصة بهذه السوق) (Bourdieu.P.2001 :77).

تتميز السوق اللغوية بكونها شديد العينية وشديد التجريد في آن معا. فمن الناحية العيانية، تظهر في وضع اجتماعي رسمي طقسي"من الطقوس<Rituel>، وبهذه الدرجة أوتلك، مع مجموعة معينة من المتحدثين يكونون على هذه الدرجة اوتلك من التراتب الاجتماعي، بالإضافة إلى الكثير من الخصائص التي تدرك وتقدر على نحودون مستوى الوعي، وهي التي توجه الإنتاج اللغوي بطريقة غير واعية. ومن ناحية التعريف المجرد، إنها نوع من القوانين التي تحكم ثمن المنتجات اللغوية. مع التذكير بان هنالك قوانين لتكوين الثمن وان قيمة قدرة معينة تعتمد على السوق المعينة التي تعمل فيها تلك القدرة، اوبدقة اكبر على حالة العلاقات التي تتحدد فيها القيمة المنسوبة إلى النتاج اللغوي للمنتجين المختلفين(Bourdieu.P.2001 :101).

يستنتج من هذا، ان بورديويستبدل القدرة اللغوية التي قال بها تشومسكي بالرأسمال اللغوي، وطبعا فان الحديث عن الرأسمال اللغوي معناه ان هنالك أرباحا لغوية، والمثال الذي يقدمه على ذلك، هوالصراعات القومية حيث تكون اللغة رهانا مهما، فثمة علاقة تبعية شديدة الوضوح بين آليات السيطرة السياسية وآليات تكوين الأثمان اللغوية المميزة لوضع اجتماعي معين. فعلى سبيل المثال، أن الصراع بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالعربية التي تلاحظ في عدد من البلاد الناطقة بالعربية كالجزائر، التي احتلتها فرنسا، لها بعد اقتصادي، بمعنى انه من خلال الدفاع عن سوق لمنتجات لغوية مخصوصة يدافع الحائزون على قدرة معينة عن قيمتهم الخاصة كمنتجين لغويين. وأمام الصراعات القومية يتأرجح التحليل بين النزعة الاقتصادية ونزعة صوفية – كما يقول - وتسمح هذه النظرية بفهم أن الصراعات اللغوية من الممكن، ان لا يكون لها أساس اقتصادي واضح، ومع ذلك تشتبك مع مصالح شديدة الحيوية، قد تكون أحيانا أكثر حيوية من المصالح الاقتصادية، ومن ثم فان إعادة إدخال فكرة السوق هي بمثابة التذكير بتلك الحقيقة البسيطة، وهي ان القدرة ليس لها من قيمة، إلا إذا كان لها سوق.

والحديث عن سوق لغوية يعني كذلك الحديث عن علاقات القوى(فللسوق اللغوية قوانين تكوين الأثمان تفرض بطريقتها ألا يكون المنتجون اللغويون والمنتجون

للأقوال متساويين. بيد ان علاقات القوة التي تسود تلك السوق والتي تفرض ان يكون لبعض المنتجين وبعض المنتجات امتيازا فوريا، تفترض ان السوق اللغوية موحدة نسبيا) (Bourdieu.P.2001 :107). ففي السوق اللغوية، تعمل أشكال من السيطرة لها منطق نوعي، وكما هي الحال في كل سوق للأموال الرمزية، هنالك أشكال من السيطرة النوعية ليست قابلة إطلاقا للاختزال إلى السيطرة الاقتصادية بالمعنى الدقيق، لا في نمط فعلها ولا في الأرباح التي تدرها.

وهكذا، فان الرسالة اللغوية لا تفهم إلا بوصفها نتاج لساني، وان التأويلات تكون على قدر العلاقة التي يقيمها المنتجون. من هنا يعتقد ان (السوق ـ السوق اللساني ـ يساهم في القيمة الرمزية، وفي معنى الخطاب معا) (Bourdieu.P.1882 :15).

ولكن، إذا كانت اللغة تخضع للسوق اللغوية ويحكمها الرأسمال اللغوي بوصفه رأسمالا رمزيا، فان مشكل الأسلوب<Le style >، بما هودليل على حضور الفرد وتميزه، يبقى مطروحا، لان ما يتحرك في السوق اللغوية ليس اللغة ولكن خطابات متميزة أسلوبيا، سواء في طريقة إنتاجها اومكانة منتجيها اومستقبليها. فليس هنالك من كلمة محايدة، وكل كلمة يمكن ان تأخذ معاني متعارضة اومتضادة اومتناقضة وذلك بحسب الطريقة التي يقدمها المرسل ويستقبلها المستقبل. ولعل، أحسن مثال على ذلك، هواللغة السياسية والدينية.

ان هذه الاختلافات اللغوية لا ترجع في نظره إلى الأفراد، ولكن إلى بنية الفضاء الاجتماعي الذي يكون لاشعوريا، وبنية الفضاء الثقافي لقائلي تلك اللغة. ولكن هذا لا يمنع من ان على علم الاجتماع، ان يحترم استقلالية اللغة ومنطقها الخاص وقواعدها الذاتية في العمل. فنحن لا نستطيع فهم الأثر الرمزي للغة ما لم نأخذ بعين الاعتبار الفكرة القائلة أن اللغة هي الآلية الصورية الأولى التي تملك قدرات عامة ولا متناهية. إذ من الممكن أن نتلفظ بكل شيء في اللغة، ولكن في حدود نحوها.

<u>بين سلطة الخطاب وخطاب السلطة:</u>

اذا كان بورديوقد طور قاموسا خاصا به في التحليل اللغوي، مثل مفهوم الحقل، والحقل اللساني، والرأسمال الرمزي، والسلطة الرمزية، والسوق اللغوية، والرأسمال اللغوي، فإننا نريد ان نتوقف بشكل خاص عند مفهوم سلطة الخطاب وخطاب السلطة. فقد انتقد بورديواطروحة "اوستين" التي تعطي سلطة لبعض الكلمات. كما رفض ذلك التمييز "الساذج" ـ كما يقول ـ الذي أقامه دي سوسير بين اللسانيات الداخلية والخارجية، بين اللغة واستعمالاتها، نافيا فكرة سلطة الكلمات، معترفا بان القوة الخطابية للعبارات لا تكمن في الكلمات نفسها. رغم وجود حالات استثنائية يمكن أن تختزل فيها التبادلات الرمزية إلى علاقات تواصلية محضة. إن سلطة

الكلمات ليست أكثر من السلطة المفوضة لناطقها، وان كلماته، اومادة خطابه، ليست أكثر من شهادة من بين شهادات أخرى، لضمان التفويض الذي يتم استثماره.

يقول،(ليست سلطة الكلام إلا السلطة الموكولة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة. والذي لا تكون كلماته (أي محتوى خطابه وطريقة تكلمه في ذات الوقت) على أكثر تقدير، إلا شهادة من بين شهادات أخرى، على ضمان التفويض الذي أوكل للمتكلم، وان أقصى ما تفعله اللغة هوأنها تمثل هذه السلطة وتظهرها وترمز إليها) (Bourdieu.P.1982 :105). فليس هنالك سلطة الخطاب، هنالك فقط خطاب السلطة، وان هذا الخطأ ـ في نظره ـ وقع فيه اوستين ولحقه به في ذلك هبرماس، وذلك عندما اعتقدا ان من الممكن ان يستخرج من الخطاب ما يشكل فعالية الخطاب(Bourdieu.P.1982 :106).

ان هذا التحديد يتفق ويختلف مع ميشيل فوكوفي الوقت نفسه، ففي الوقت الذي يعتبر فيه فوكو، ان للخطاب سلطته الخاصة وذلك من منطلق فلسفي وجودي، ينحوفيه منحى "نيتشه" و"هيدغر"، فانه لا يفصل الخطاب عن السلطة والمجتمع معا، وهذا ما بينه في كتابه "نظام الخطاب"، حيث حلل مختلف الإجراءات التي يخضع لها الخطاب وخاصة، الإجراءات الخارجية أو(عمليات المنع والقسمة والرفض وإرادة المعرفة) والإجراءات الداخلية أو(التعليق والمؤلف والفرع المعرفي) وإجراءات التوظيف أو(جماعات الخطاب والمذاهب الدينية السياسية والفلسفية والتملك الاجتماعي للخطاب) (Foucault.M.1971 :11-47).

كما انه في الوقت الذي يقر فيه فوكوبأهمية تحديد اوستين و"سيرلSearle" (Searle.J.1970) بشكل خاص للملفوظ اوللمنطوق، فانه يختلف معهما في طريقة التحليل، تلك الطريقة التي تجد مجالها في التاريخ وفي ربطها للملفوظ بالسلطة مع مفهوم جديد وخاص به. من هنا فان فوكووان كان تحليله للخطاب يتفق ومضمون المنطوق كما صاغه اوستين، إلا أن منهج التحليل يختلف لأنه يجري في البعد التاريخي وفي إطار العلاقة بين المعرفة والخطاب والسلطة والخطاب، وبذلك يتفق مع تحليل بورديوالذي يلح على الطابع الاجتماعي والتاريخي للخطاب وعلى ارتباطه بالمؤسسة وبالسلطة الرمزية. هذه السلطة الرمزية التي لا يمكن ان تتحقق في غياب الاعتراف الذي يدلي به الخاضع لتلك السلطة.

من هنا فان تحليل الخطاب عند بورديولا يمكن ان يكون تحليلا لذاته، أي لذات الخطاب، كما تفعل البنيوية الشكلية، وان الوحدات الصورية للخطاب لا يفهم معناها إلا إذا تم ربطها بالشروط الاجتماعية لإنتاجها، بمعنى للمكانة والوضع الذي يحتله مؤلفوها في حقل الإنتاج،أي للسوق الذي أنتج من اجلها، وكذلك مجموع الاستحقاقات<les échéants> المطلوبة. يقول(ان علم الخطاب بوصفه تداولية اجتماعية

يوجد اليوم في مكان شاغر أوغير مشغول، رغم أن هنالك من سبق الى ذلك، لقد بدا مع بسكال في: القروي<Provinciale> ، ونيتشه في: ضد المسيح ، وماركس في: الأيديولوجية الالمانية، وعمل فعليا على الاكتشاف في الوحدات الأكثر صورية للخطاب، أثار الشروط الاجتماعية لإنتاجها وتوزيعها) (Bourdieu.P.1982 :165). وعلى التحليل أن يبين أويعين الوحدات الاجتماعية للأسلوب والوحدات الاجتماعية للمؤلف.

وخلص إلى نتيجة مركزية، مؤداها كما يقول(نتبين الآن ان جميع الجهود التي بذلت لترى في المنطق اللغوي الذي يتحكم في مختلف الأشكال الاستدلالية والبلاغية والأسلوبية، سبب الفعالية الرمزية لتلك الأشكال، لابد وان تبوء بالفشل ما دامت لا تقيم علاقة بين خصائص الخطاب وصفات من يلقيه وسمات المؤسسة التي تسند إليه أمر الإلقاء) (Bourdieu.P.1982 :109).

فعلى سبيل المثال، ان خطابا سلطويا كدرس الأستاذ وخطبة الواعظ الديني، لا يفعل فعله إلا عندما يعترف به كخطاب نفوذ وسلطة. وهذا الاعتراف الذي يصاحب بالفهم اوبدونه، لا يتم بيسر وسهولة إلا ضمن شروط خاصة، وهي الشروط التي تحدد الاستعمال المشروع (فالخطاب ينبغي أن يصدر عن الشخص الذي سمح له بان يلقيه، أي عن هذا الذي عرف، واعترف له، بأنه أهل لان ينتج فئة معينة من الخطابات وانه كفؤ وجدير بذلك...كما انه ينبغي ان يلقى في مقام مشروع، أي أمام متلقي شرعي...وأخيرا ينبغي للخطاب ان يتخذ الصورة الشرعية القانونية أي ان يخضع لقواعد النحووالصرف...) (Bourdieu.P.1982 :115). من هنا يستنتج بورديو، انه لا تحكم لغة السلطة ولا تأمر إلا بمساعدة من تحكمهم، أي بفضل مساهمة الآليات الاجتماعية القادرة على تحقيق ذلك التواطؤ الذي يقوم على الجهل، والذي هومصدر كل سلطة(Bourdieu.P.1982 :119).

وعلى هذا الأساس من التحليل للغة والخطاب، يدعوبورديوالى ما يسميه بالتداولية الاجتماعية < une pragmatique sociologique> ومضمونها، انه مادامت اللغة لا تتضمن في ذاتها سلطة، وان كانت تتضمن في ذاتها وفي منطقها الداخلي بعض السلطة مثل ما يؤكد ذلك البرهان الخاطئ اوالقياس الخاطئ <le paralogisme>، أي القدرة على التضليل وهوما ينسب للسفسطائيين كما ذهب الى ذلك افلاطون.

فلقد استفاد السفسطائيون من إمكانية وقدرة اللغة على أن لا تقول شيئا، أوان تقول اللامعنى، اوأن توجد في الكلمات وبواسطة الكلمات ما لا يوجد في الواقع. نعم للغة هذه الإمكانية، ولكن من دون هذه الإمكانية، فان للغة وجود اجتماعي، وسلطتها مستمدة من ذلك الوجود، وحتى اللغة السفسطائية مستمدة من قوة السفسطائيين، كما بين ذلك افلاطون،بجدارة واقتدار، ودحضها ارسطوبالمنطق والبرهان.

وعليه فانه حتى نظام التسمية وعبارة: "اننا نسميك دكتورا" على سبيل المثال، تعني وفي الوقت نفسه شكلا من الوجود الاجتماعي. مما يعني ان القياس الخاطئ لا يمكن محاربته فقط بقياس منطقي مثل ما فعل "برتراند راسل" على سبيل المثال، وإنما بإظهار خطئه اجتماعيا. صحيح انه في العالم الاجتماعي الكلمات بإمكانها ان تصنع الأشياء، ولكن هذا لا يتم الا وفق شروط معينة. وهوما يعني ان العلم الاجتماعي له أسبابه ومبرراته التي لا يعرفها المنطق نفسه.

مكانة اللغة في نظرية الممارسة:

يظهر بورديوناقدا لمختلف النظريات اللغوية وخاصة نظريات دي سوسير وشومسكي، انطلاقا من مبدئهما في الفصل بين اللغة والكلام، واوستين في إسناده لبعض الملفوظات آثار السلطة، واكثر من هذا يقترح مقاربة جديدة للغة والتبادل اللغوي. وبالطبع فان هذه المقاربة هي استمرار لوجهة نظره التي طرحها في اعمال سابقة وفي سياقات اخرى. وهوما يعني ان فهم مقاربته في اللغة يجب ان تأخذ في الحسبان الإطار النظري الذي أسسه والمفاهيم والقضايا الكبرى التي ناقشها تحت اسم: النظرية التطبيقية اونظرية الممارسة<Théorie de la pratique>.

لقد كانت نظرية الممارسة جهدا منظما لتجاوز مجموعة من التقابلات والمتضادات والمتعارضات التي تواجهها العلوم الاجتماعية منذ نشأتها. مثل الفرد في مقابل المجتمع، الفعل في مقابل البنية، والحرية في مقابل الضرورة، والذاتية في مقابل الموضوعية.

يرى بورديوان الذاتية هي الوضعية الفكرية تجاه العالم الاجتماعي التي تهدف إلى فهم الكيفية التي يظهر فيها العالم لناظريه اولملاحظيه، وفي هذا التعريف تلميح الى السوسيولوجيا كما حللتها الظواهرية اوالتأويلية، وكما نقرؤها في كتابات "الفرد شوتز"، أي ما يتصل بالتجربة الذاتية. اما الموضوعية فهي توجه فكري يهدف إلى إنشاء العلاقات الموضوعية التي تقوم عليها الممارسات اوالتطبيقات والتصورات اوالتمثلات. وفي نظره فان الموضوعية تفترض نوعا من القطيعة مع التجربة المباشرة، أي انها تضع بين قوسين التجربة الأولى لتحاول إيجاد البنيات والمبادئ الأولية لكل تجربة أولية. وتعد التحليلات المقدمة من قبل ليفي ستروس مثالا لهذا الطرح.

يعتقد بورديو، ان القطع مع التجربة المباشرة هي الخطوة الأولى منهجيا، لعلمية البحث السوسيولوجي، ذلك ان الباحث الاجتماعي يشارك مباشرة في الحياة الاجتماعية، مما يعني انه يجب القطع كما قال باشلار مع المعرفة العامة. ولكن هذه الخطوة تواجه مشكلة، وهي انها لا تحدد بشكل دقيق الرابطة اوالعلاقة بين المعرفة المنتجة والمعرفة المطبقة اوالممارسة التي يمتلكها الفاعلون العاديون. أي هنالك ضعف في إدراك وفهم العلاقة بين العلاقات الموضوعية من جهة، والنشاطات التطبيقية للأفراد

المشكلين للعالم الاجتماعي من جهة اخرى. وعليه فان نظريته في الممارسة، هي محاولة لتجاوز صعوبات الموضوعية من دون السقوط في الذاتية. بمعنى إعطاء الأهمية للقطيعة مع المعرفة العامة من دون إحداث ضرر بالطابع العملي للحياة الاجتماعية.

ولقد كان المفهوم الأساسي والكبير الذي استعمله بورديو، في هذا السياق هومفهوم التطبع، وهومفهوم قديم نقرأه عند ارسطو، ولكن بورديواستعمله بمعنى جد خاص. لقد استعمله بما يفيد مجموعة من الإجراءات التي يحملها الفاعلون من اجل الفعل ورد الفعل بشكل من الأشكال. وتتضمن الإجراءات، ممارسات وتصورات وسلوكيات منظمة، ولكن ليس بطريقة واعية بالضرورة، مثل آداب المائدة وآداب الجلوس وآداب الأكل وآداب الحديث وآداب التعامل...الخ، أي تلك الإجراءات والعمليات التي تصبح طبيعة ثانية للفرد. هذه الإجراءات تتميز بكونها مبنية ودائمة وعامة ومتنقلة اومتحولة. وكل تطبع من تلك التطبعات يؤدي معنى عمليا. وهكذا فالمعنى العملي اوالحس العملي ليس فقط حالة ذهنية بقدر ما هوحالة جسدية.

ولا يجب فصل مفهوم التطبع عن السياق الاجتماعي الخاص به، اوالحقل الذي يعمل فيه اويتحرك فيه الأفراد، وهنا نلتقي مع مجموعة أخرى من المفاهيم المنهجية مثل الحقل والسوق واللعبة، فالحقل والسوق فضاءات مبنية من المواقف التي يحددها توزيع مختلف الثروات اورؤوس المال.

ولعل من اهم أفكاره في هذا المجال هوقوله بوجود انواع مختلفة من الرأسمال. وانه لا يوجد فقط رأسمال اقتصادي. فهنالك رأسمال ثقافي متكون من المعارف والقدرات التقنية والتربوية، ورأسمال رمزي متعلق بالمجد والشرف، ورأسمال لغوي. وان المجال اوالحقل هودائما ميدان للصراع والأزمات والنزاعات، وان الأفراد الذين يصارعون داخل حقل معين لهم رؤى مختلفة وحظوظ مختلفة ولكنهم يتقاسمون مجموعة من القضايا الأولية. فمثلا كل المشاركين في حقل ما، يجب ان يؤمنوا اوان يعتقدوا باللعبة التي يلعبونها، وبالقيمة التي يلعبون من اجلها. وهكذا فان هنالك دائما اتفاق مسبق اوعلى الأقل تواطؤ أساسي من قبل المتنازعين.

ولا تخرج نظريته في اللغة والخطاب والتبادل اللغوي، عن نظريته في الممارسة. فالمنطوقات والعبارات اللغوية هي أشكال من الممارسة، وهي من هذه الوجهة قريبة من وجهة نظر فوكوالذي يتحدث دائما عن الممارسات الخطابية والممارسات غير الخطابية، وانه يجب فهمها على انها نتاج العلاقة بين التطبع اللغوي والسوق اللغوية. فالتطبع اللغوي هومجموعة من الإجراءات والعمليات كتعلم اللغة في سياقات معينة كالأسرة والمدرسة. والتطبع اللغوي مغروس في الجسد ذاته كالصوت مثلا اوما يسميه بالأسلوب في التلفظ. ولقد تم دراسة هذه الاثار من قبل علم اجتماع اللغة<Sociolinguistique>، والانثربولوجية اللغوية<Anthropologie du langage >

ومن قبل المهتمين باللغات الشعبية، أي ما يدخل في باب: الجغرافيا اللغوية<Géolinguistique>.

ان أشكال النطق ـ على سبيل المثال ـ لا ترتبط بالجسد فقط، ولكنها ترتبط ايضا بالطبقات والفئات الاجتماعية. فالنطق عند الفئات الشعبية يختلف عنه عند الفئات الأرستقراطية اوالثرية، وكذلك الحال بالنسبة لسكان الريف مقارنة بسكان المدينة.

يعني هذا ان الملفوظات والعبارات اللسانية يتم إنتاجها دائما في سياقات وأسواق خاصة. وان هذه الأسواق تعطي لهذه المنتجات اللغوية قيمة. والقيمة تخضع بالطبع لمبدأ الكفاءة العملية، وهومبدأ غير متساوي يخضع لعملية الرأسمال اللغوي. وان الرأسمال اللغوي يؤدي إلى الرأسمال الاقتصادي والثقافي. وانه كلما كان رأسمال المتحدث مهما، كلما كان هذا الأخير له المقدرة في ان يستغله لصالحه، أي ان هنالك ما يمكن ان نسميه بنظام التفارق اوالاختلافات، وبالتالي ضمان المصلحة اوالربح في التميز<profit de distinction>.

كما يربط اللغة كذلك بمسالة الرقابة واللغة الشرعية، ففي حديثة عن السلطة الرمزية اشار الى مسالة:الاعتراف والتجاهل< reconnaissance et méconnaissance > كما استعمل مفهوم السلطة الرمزية والعنف الرمزي، الذي طبقه على دراسة الهبة في المجتمع القبائلي بالجزائر، فبدلا من ان يدرس الهبة في بنيتها الصورية، نظر الى التبادل الذي تحدثه الهبة بوصفة سلطة مقنعة. (وهكذا ـ كما يقول ـ فان ما يمكن ان نطلق عليه شروطا طقوسية، واعني مجموع القواعد التي تتحكم في شكل المظهر العمومي للسلطة ومراسيم الاحتفالات والقواعد التي تضبط الأعمال والتنظيم الرسمي للطقوس، لا تشكل الا شرطا واحدا اكثر تجليا من بين مجموعة من الشروط التي من اهمها تلك التي تهيؤ للاعتراف ان يكون، في ذات الوقت تجاهلا وإيمانا، أي التي تهيؤ لتسليم سلطة تعطي الخطاب المشروع قوته وتؤمن بنفوذه) (Bourdieu.P.1982 :116).

من الواضح ان المفاهيم المستعملة في تحليل اللغة عند بورديو، ذات منشأ اقتصادي، إلا أنها مكيفة لتحليل الحقول التي هي ليست اقتصادية بالمعنى الحصري للكلمة. ولكن من دون شك، فانها النقطة التي تؤدي الى سوء الفهم، هواعتبار نظريته نوعا من الاختزال الاقتصادي. على انه اذا كان استعماله للمفاهيم الاقتصادية يمكن ان يطرح بعض المشاكل، وخاصة ما تعلق بالماركسية وتأويلاتها، فان فكره من التعقيد ما يبعد عنه شبهة الاختزال. ذلك انه لا يقوم برد لجميع الحقول الاجتماعية الى الاقتصاد، ولا كل الممارسات الاجتماعية إلى الاقتصاد كما تفعل الماركسية،

ولكنه بالعكس يحدد الاقتصاد بالمعنى الحصري للكلمة بوصفه حقلا من بين حقول متعددة التي لا ترد الواحدة إلى الأخرى.

وعليه فان الحقول التي لا تكون اقتصادية، لا يمكن ان تعمل وفقا لمنطق اقتصادي أي محكومة فقط بالناحية المالية. ولكن من الممكن ان تخضع الى المنطق الاقتصادي بالمعنى الواسع، وذلك اذا اتجهت نحوالزيادة في راسمال معين، كالرأسمال الثقافي اوالرمزي اواللغوي. وهوما يعني ان بورديويقيم علاقة بين الأفعال والمصالح اوبين ممارسات الفاعلين ومصالحهم، دون الاقرار بالضرورة ان هذه المصالح اقتصادية بحتة.

فاذا ما أردنا ان نعرف المصالح التي يلعب بها، اوهي موضوع رهان في الإنتاج الأدبي اوالفني فيجب تشكيل الحقل الفني في علاقته بالحقل الاقتصادي والسياسي اواللغوي، كما بين ذلك في حالة الصراع اللغوي في البلدان المستعمرة، وتعتبر الجزائر مثالا حيا لهذا الصراع اللغوي الذي يعكس مصالح اقتصادية وسياسية ورمزية.

واذا كان بورديويستمد مصطلحه النقدي من الماركسية والاقتصاد السياسي، فان ما تجب الإشارة إليه هووجود توجه كامل يحاول دراسة علاقة اللغة بالاقتصاد، هذا ما نقراه على سبيل المثال في كتاب "كلوريان كولماس" حيث اكد على ضرورة النظر الى علاقة اللغة بالمجتمع والاقتصاد مبينا أن اللغات في تطورها تخضع للطريقة التي تتفاعل بها المجتمعات البشرية مع بيئاتها الاجتماعية والاقتصادية، وأن تحليل حركة الأسواق والعملة والتجارة يبين مدى استعمال اللغة وتوسعها وانتشارها، لذلك خلص الى نتيجة مؤداها ان الخطاب والتجارة هما وسيلتين للاغتناء العقلي والمادي، وانه عندما انتشرا عبر الحدود الوطنية واللغوية، حدثت تغيرات ضخمة في العادات الاتصالية، وحصل تنافس بين اللغات، وتأكد أن انتشار اللغات يدل على فائدتها ونجاحها الاقتصادي الذي يعتمد على الظروف الاجتماعية والاقتصادية للجماعات اللغوية الخاصة(كولماس.ك.2000: 347).

وإذا كان هذا المنظور اللغوي الاقتصادي، يحتاج إلى مناقشة موسعة نظرا لأهمية الاقتصاد في حياتنا الاجتماعية،ونظرا لأهمية العلاقات الاقتصادية الدولية، التي تعبر عنها العولمة بجوانبها التجارية والصناعية والاتصالية، فإننا نعتقد أن مساهمة بورديوتتميز بطرحها لمنظور لغوي جديد، يسمح بالخروج من المنعطف اللغوي الذي طبع الفلسفة المعاصرة، ويتجاوز الفلسفة اللغوية المنغلقة في التحليل اللغوي الصرف، وذلك باسم التداولية الاجتماعية.

على ان هذا الطرح لا يجب ان نفصله عما قدمه الفيلسوف الكانطي الجديد "ارنست كسير" في كتابه "فلسفة الأشكال الرمزية" الذي دافع على الطابع الرمزي للغة، ومنه استقى بورديونظريته الاجتماعية في اللغة، ولا عن المنظور البنيوي كما

طوره بياجي وغولدمان، ووظفه بورديو في الحقل الثقافي والفني عموما والحقل اللغوي بشكل خاص.

قائمة المراجع المعتمدة في البحث

1 . بياجي، جان، 1971، البنيوية، ترجمة عارف منيمنة وبشير اويري، بيروت، منشورات عويدات.

2 . كولماس، كلوريان ،2000، اللغة والاقتصاد، ترجمة احمد عوض، الكويت، عالم المعرفة، رقم 263.

3. Austin , JIL. 1970, Quand dire, c'est faire, Paris, Seuil.

4. Bourdieu, Pierre,1987, Choses dites, Paris, Minuit.

5. Bourdieu ,Pierre, 1980, Questions de sociologie, Paris, Minuit.

6. Bourdieu Pierre, 1980, Le sens pratique, Paris, Minuit.

7. Bourdieu, Pierre, Langage et pouvoir symbolique, 2001, Paris, Seuil.

8. Bourdieu, Pierre, 1982, ce que parler veut dire, *l'économie des échanges linguistique,* Paris, Fayard.

9. Dosse, François, 1992, Histoire du structuralisme, tome : le champ du signe,1945-1966,Paris, La découverte.

10. Ferenczi ,Thomas, 2002 du 26 janvier, Le journalisme critiqué et honoré, Le Monde.

11. Foucault, Michel, 1971,L'ordre du discours, Paris, Gallimard.

12. Goldman , Lucien, 1970, Marxisme et science Humaines, Paris, Gallimard.

13. Labov ,William, 1976, Sociolinguistique, Paris, Minuit.

14. Piaget ,Jean,1970,Psychologie et Epistémologie, *pour une théorie de la connaissance,* Paris, Gonthier.

15. Piaget ,Jean, 1972L'épistémologie génétique, Ed, PU F.

16. Searle, J, 1970, Speech Acts, An Essay in the Philosophy of Language, Cambridge University Press.